الديانة المدنية في الولايات المتحدة

روبير بيلا

إذا كان البعض قد أثبت ان أميركا كانت بلاداً تمارس شعائر ذات طابع قوميّ مسيحيّ ، والبعض الآخر أكّد ان الكنيس اليهودي والكنيسة ، لم يكونا يمارسان إلاّ الشعائر المعمّمة لـ American Way of life ، أي الأسلوب الاميركي للحياة ، فإن هنالك قلة نادرة ، وعت أنّه كانت توجد فعلاً في أميركا ، الى جانب الكنائس ، ديانة مدنيّة مرهفة وثابتة ، تتميز بشكل واضح عن سائر الطوائف .

إن القصد من هذا المقال ، ليس فقط تأييد هذا الموضوع ، ولكنْ يُتوخّى منه إظهار كون هذه الديانة ، أو بالأحْرى هذا الحجم الدينيّ ، له جدّيته وسلامة وحدته الكاملة الخاصّة ، وأنه جدير بالدراسة كأيّة ديانة اخرى ، مع إيلائه الاهتمام نفسه[1] .

الخطاب الافتتاحي لكنيدي

إن خطاب جون كنيدي الذي أُلقي في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦١ ، هو بمثابة مثل لنا ، وخط توجيه لخوض هذا الموضوع المعقّد . هكذا بدأ كيندي خطابه :

« إننا اليوم لا نشهد انتصار حزب ، ولكننا نحتفل بالحرّية التي هي رمز لنهاية عصر ، وانطلاقة تجدّد وتغيير في آنٍ واحد ، لأن القَسم المهيب الذي أدّيته اليوم امامكم وأمام الله العليّ القدير ، هو نفسه الذي أوصى به آباؤ نا منذ ما يقارب ١٧٥ سنة . لقد تغيّر العالم كثيراً منذ ذلك الحين ، إذ بوسع الانسان ان يقضي على سائر أشكال الفقر وإبادة كل اشكال الحياة البشرية . ومع ذلك فإن المعتقدات الثورية التي من أجلها تقاتل آباؤ نا ، تمثل دائماً موضوعاً للجدل عبر العالم ، كما ان فكرة حقوق الانسان ليست ثمرة كرم الدولة بل هي هبة من الله » . وهذا ختام قوله :

« بالاختصار ، سواءً أكنتم مواطنين اميركيين ، او من سائر العالم ، عليكم ان تتطلبوا منّا قوة السجايا نفسها وروح التضحية نفسها ، التي سنطلبها منكم . فبوجدان صافٍ من أجل مكافأة أكيدة ، والتاريخ حكم نهائي لأعمالنا ، فلنهيّء انفسنا للإشراف على مصير الأرض التي نحبّ ، ملتمسين نعمتها وبركتها دون ان ننسى أنّه ينبغي علينا ان نجعل بكل أمانة عملَ الخالق عملنا .

ففي هذا الخطاب ، ذكر كيندي اسم الله ثلاث مرّات . إنّنا لنعلم شيئاً كثيراً عن الديانة القوميّة الاميركية لو نتوصّل الى معرفة كيف ولماذا أتى بها ، وما كان ينوي . . وهذا السؤال ليس بسيطاً ولا واضحاً ، ومن المحتمل ان الأخصائيين في الديانات سيتقدّمون بتفسيرات متباينة جداً عن تلك المقاطع .

فلنتوقف أوّلاً عند هذه المصادفة ، وهي ذكر اسم الله ثلاث مرّات . فهذه اللفظة توجد في الفقرتين الأوليين ، وفي الختام ، تشكّل - إذا صح التعبير - إطار ملاحظات محسوسة تؤلف الجزء الرئيسي للخطاب . وفي غير الخطاب هذا ، نجد هذه اللفظة ، اسم الله ، مكرّرة في أغلبيّة تصريحات الرؤساء الأميركيين أثناء خطابات رسميّة ، ما عدا الخطابات التي تتعلّق بمهام العمل عادة ، التي يلقيها الرئيس أمام الكونغرس ، حول مسائل مادية . فأي معنى لذكر هذه اللفظة في الحالة هذه ؟

بإمكاننا تأكيد ان المقاطع المذكورة تشهد على الدور البليغ أساساً للديانة في مجتمع علماني لهذا الحدّ كالمجتمع الاميركي . وبصورة عامة ، فإن مصادفة تكرار ذكر الله في هذا الخطاب ، كما يحصل في الحياة الاجتماعية ، لا يحمل إلاّ « معنىً احتفالياً » ، وهي ليست إلاّ تكريماً عاطفياً موجّهاً فقط لاستمالة الأعضاء الأقل تنويراً من المجموعة ، قبل خوض المسائل الجدّية حقّاً ، حيث الدين ليس له اي دخل في ذلك . وقد يقول أحد المتهكّمين إن أيّ رئيس أميركي عليه ان يذكر اسم الله خوفاً من ان يخسر أصواتاً ، وببساطة ، فإن التظاهر بالتقوى ، يبقى من الصفات المتطلّبة ضمناً من المرشحين لهذا المنصب ، وإن

تكُ تقليدية بعض الشيء ، فهي لا تختلف أساساً عن الالتزام الحالي ليصبح المرشّح مؤثّراً من التلفزيون .

وما نعرفه عن وظيفة الاحتفالات والطقوس في مختلف المجتمعات يكفي لأن نكون حذرين ، وان لا نقرّر شيئاً لا معنى له ، بحجة أنّه ليس إلّا شعيرة طقسيّة . فلا شيء يرغمنا ان نصدّق حرفيّاً ما يقوله الناس في المناسبات الرسميّة . لكن اقوالهم غالباً ما تكشف عن معاييرهم ومعتقداتهم العميقة التي لا تظهر بوضوح في الحياة اليوميّة . في هذا الصدد ، جدير بنا التساؤل ، عمّا إذا كانت هذه المصادفة الخاصّة في الرجوع إلى الله في خطاب كنيدي ، لا يكشف عن وجهٍ مهم وجدّي للديانة في الحياة الأميركية .

ويمكننا الادّعاء ، ان الطريقة ذاتها التي ورد فيها ذكر الله هي دليل على المكان الجوهريّ الباقي ، والذي تحتلّه الديانة اليوم . الرئيس كنيدي لم يذكر السيد المسيح ولا النبي موسى ولا المسيحية ، وبالتالي لم يأتِ على ذكر الكنيسة الكاثوليكية . إنه اكتفى ، في الواقع ، بذكر الله ، وهي لفظة يتقبلها جميع الاميركيين تقريباً ، وتتضمّن معاني شتّى عند مختلف الناس ، حتّى أنها اصبحت تقريباً ، رمزاً خالياً من اي محتوىً . وهذا ليس إلّا دليلاً إضافياً على ان الدين في أميركا يعتبر بغموض ، شيئاً حسناً ، غير ان اهتمام الناس به ضئيل الى درجةٍ فقد معها لبّه . أوَ لم يجزم ايزنهاور قائلاً : « إن حكومتنا لا معنى لها إلّا إذا رستْ على ايمان معاشٍ في الأعماق ، دون الاهتمام بنوعه »[٢] . أليس هذا نفياً كاملاً لكل نوعٍ من الديانات ؟

هذه الاسئلة جديرة بأن تُسْبَرَ ، لأنها تطرح مسألة تطبيق الدين المدني على المجتمع السياسي من جهة ، وعلى التنظيم الديني الخاص من جهة ثانية . فالرئيس كنيدي ، كان مسيحياً ، وبكلام أدق ، كان ينتمي الى الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا ، ألا يعني ذكره العام لاسم الله ، أنه لم يكن يعتبر من أية طائفة خاصة ؟ ولكن لماذا اذاً لم يُلمحْ إلى سيادة المسيح في هذا العالم ، ولم يُظهر اي احترام نحو الكنيسة الكاثوليكية ؟ فإذا امتنع عن ذلك ، فلأن المسألة ، كانت تتعلّق بمعتقداته الدينيّة الباطنيّة الخاصة ، وبصلاته مع كنيسته الخاصة ، لأنها اشياء لم يكن لها صلة مباشرة مع مسؤولياته الرسمية . وهنالك شخصيّات أخرى : معلنون عن أفكار دينية مختلفة ، ومنتمون لكنائس أخرى أو لطوائف أخرى ، لديهم الجدارة نفسها أيضاً للاشتراك في الحياة السياسيّة . فإن مبدأ فصل الكنيسة عن الدّوْلة ، يحمي حرّية المعتقد ، والجمعيات الدينية ، بينما يفصل بوضوح الحقل السياسيّ عن الحقل الديني الذي يعتبر خاصاً من حيث الجوهر .

بمراعاة انفصال الكنيسة عن الدولة ، ما الذي يسمح لرئيس بالتلفّظ باسم الله ؟ فالواقع ان هذا الفصل لم يرفض كل بعد دينيّ للسياسة . وبالرغم من ان مسائل المعتقد الديني الشخصيّ ، والعبادة ، وتأسيس الجمعيات الدينية ، هي قضايا خاصة بحتة ، فإن معظم الأميركيين يتقبّلون بعض العناصر المشتركة في الاتجاه الديني . فقد لعب هؤلاء دوراً مهمّاً في تطوير المؤسسات الاميركية ، وما زالوا يستمرون في اعطائهم حجماً دينيّاً لكل مظاهر الحياة الاميركية ، بما فيها الحياة السياسيّة . فهذا البعد الديني العام الذي يترجم بمجموعة من المعتقدات والرموز والشعائر ، أسميها هنا بـ « الديانة المدنيّة » الاميركية . ان مناسبة بدء رئيس الجمهورية عمله ، هو احتفال له شأنه في إطار هذه الديانة . إنه يؤكّد ، فيما يؤكّد ، الشرعيّة الدينيّة لأعلى سلطة سياسيّة .

فلنبحث عن كثب ما قاله كنيدي حقاً ، حين بدأ معلناً : « القسم المهيب الذي أدّيته اليوم امامكم وامام الله العلي القدير ، هو نفسه الذي أوصى به آباؤنا منذ ما يقارب ١٧٥ سنة » . بهذا الأداء للقسم السياسيّ ، قبل الرئيس ان يتعهد احترام الدستور ، ويقسم أمام الشعب [« أمامكم »] وأمام الله ـ ان التزام الرئيس يشمل ما وراء الدستور ، ليس الشعب فقط ، وإنما الله أيضاً .

ان السيادة بالطبع ، ترتكز على الشعب في النظريّة السياسيّة الاميركية ولكن بشكل ضمنيّ . وغالباً ، بوضوح ، فالسيادة في النهاية مستمدة من الله . فهذا هو معنى الشعار القائل : « In God We Trust » أي « بالله نضع إيماننا » ، والتعبير « Under God » اي « في خدمة الله » هو الذي نجده في قَسَمِ الاخلاص للعلم . فما هو تأثير نسبة السيادة في تغيير الأشياء ؟ بالرغم من ان الارادة الشعبية ، كما تظهر في اختيار الأكثريّة الناخبة ، قد تعتبر قانونيّاً ، المصدر الواقعي للسلطة السياسيّة ، أو في الاكثار من المؤسسات كمصدر عملي للسلطة السياسية ، فهي خالية من أي معنىً في العمق ، لأن الأرادة الشعبيّة ليست بحد ذاتها معياراً للخير والشرّ . هنالك معيار أعلى يسمح بالحكم على هذه الإرادة ، إذ من الممكن أن يخطىء الشعب . والرئيس مرتبط بهذا المعيار الأعلى . فعندما يُعْلن كنيدي ان « حقوق الانسان ليست ثمرة تكرم الدولة ،

وإنّما هي هبةُ الله » ، فهو يركّز مجدداً على هذه النقطة . ليس مهمّاً ان تكون الدولة تعبيراً عن إرادة حاكم مطلق السلطة ، او عن إرادة الشعب ، فحقوق الانسان لها معنى اعمق من اي نظام سياسي وتقدّم نقطة ارتكاز ثوريّة يمكن لكلّ جهاز دولة ان يتبدّل بها جذرياً . هذا هو سبب اشارته الى القيمة الثوريّة لتاريخ اميركا .

ولكن هذا الحجم الديني للحياة السياسية المعترف بها من قبل كنيدي ، لا يعطي فقط قاعدة لحقوق الانسان التي تلغي صفة الشرعيّة لأي شكل من اشكال الحكم السياسي المطلق ، ولكنّه يمدّ أيضاً الحياة السياسية بهدف سام . وهذا يُفهم ضمناً من الكلمات الاخيرة لخطابه : « علينا باخلاص هنا على الأرض ، أن نجعل عمل الله شغلنا الشاغل » وكما يظهر لي ، فقد تم التعبير عن هذا المسلك بجلاء في مقطع سابق مقتبس اقتباساً عابراً ، وله رجْع توْراتي واضح :

« ها هي الاجراس تقرع من جديد ، لا كدعوةٍ للسلاح رغم حاجتنا التي لا تزال للتسلح ، وليس كدعوة للقتال رغم اننا اصبحنا على عتبة حرب ؛ ولكنْ كدعوة ، لحمل عبء نضال طويل ودؤوب من سنة الى اخرى « مستبشرين بالامل الى ابعد مدى ، صبورين في التجربة الى ابعد حد » ، انه نضالٌ ضد اعداء الانسانية جميعاً اعني الظلم ، والفقر ، والمرض ، دون نسيان الحرب كذلك » .

وليس هذا الخطاب كله إلا تعبيراً جديداً عن موضوع متأصل بعمق في التقليد الاميركي ، وهو الالتزام الجمعي والفردي لاتمام مشيئة الله على الأرض . هكذا كانت نفسيّة مؤسسي الدولة الأميركية التي انتقلت من جيل الى جيل . هذه الفكرة التي ترتسم خلال الخطاب الافتتاحي لكنيدي ، تظهر بوضوح عندما ينهي الرئيس عرضه معلناً ان عمل الله يجب ان يكون عملنا . ان اعتقاد اول رئيس كاثوليكي في اول اخطاب له ، أنّه من الضروري عرض هذا المفهوم العملاني ، المنافي للمثالية والمتطرف جداً ، في الالتزامات الدينية الأصلية ، هذا المفهوم العملاني المرتبط تاريخياً بالمذهب البروتستنتي ، يعكس النظرة الاميركية للعالم . فلنتفحص الآن في شكل وتاريخ التقليد الدينيّ المدنيّ اللذين يكوّنان إطار بيانات كنيدي .

فكرة « الديانة المدنيّة »

ان عبارة « الديانة المدنية » لها مفهومها عند روسّو ، ففي الفصل الثامن من الكتاب الرابع للعقد الاجتماعي ، يرسم روسّو العقائد المبسّطة لهذه الديانة : وجود إلّه ، الحياة الأخرى ، سعادة الابرار ، عقاب الأشرار واستبعاد التعصّب الديني . وما عدا ذلك ، فسائر الأفكار الدينيّة ، لم تعد من صلاحيّة الدولة ، بل تُترك للتقييم الحر للمواطنين . ورغم ان عبارة « الديانة المدنية » من قبل الأباء المؤسسين حسب معرفتي ، ورغم أنني أحرص على عدم الظهور أنّني واقع تحت تأثير نظريّة روسّو ، فمما لا شكّ فيه ، انه كان يوجد عند الاميركيين ، أفكار مشابهةٌ بالجو الثقافي السائد في اواخر القرن الثامن عشر . وإليكم « مثلاً » ما كتبه فرانكلن في سيرته : « لم أعش ابداً دون مبادىء دينية ،لم أشك أبداً بوجود إلّهٍ خالق الكون ومدبّره ، وانه ليس هناك طريقة أفضل لخدمة الله من تكريس الذات لخدمة القريب ، وانه لكل جريمة عقاب ، ولكل عملٍ فاضل ثواب في هذا العالم وفي العالم الثاني . وبنظري ، هذه هي الصفات الرئيسيّة المشتركة بين كل ديانات بلادي ، ومن هنا الاحترام الذي كننتُهُ لكل منها ، ولكنّه احترام متنوّع حسب تداخلها بالمبادىء التي ، بدلاً من ان تلهم وتشجع وتوافق على ممارسة المناقب ، كانت تؤدّي الى تفرقتنا وعداوة بعضنا للبعض الآخر . فمن السهل ان نلاحظ في هكذا موقف ، مفهوماً نفعيّاً اصلاً للديانة . وهذا المظهر النفعي واضح في رسالة واشنطن الوداعيّة ومن الممكن على كل حال ان يكون النص من هاملتون :

« من بين كل التدابير والاعراف التي تقود الى الازدهار السياسي ، فالدين وعلم الاخلاق ، هما دعامتان لا يمكن الاستغناء عنهما . فعبثاً يدّعي تقدير الوطن له ، كل من (يسعى) لقلب هذه الركائز للسعادة البشريّة . هذه الدعائم الأكثر صلابة لواجبات الانسان والمواطن . وعلى كل رجل سياسيّ احترامها وتمجيدها كما يحترمها الرجل التقيّ تماماً . وكتاب واحد لا يكفي لوضع قائمة ترابط هذه الأركان بالسعادة العامة والخاصة . فلنتساءل ببساطة ماذا كان سيحل بالأمن والملكيّة وبالشهرة والحياة ، لو أن كل شعور بالواجب الديني يطرح خارج قسم اليمين الذي يرتكز عليه التحقيق في محاكم العدل . ولنكن متحفظين تجاه الفكرة التي تزعم ان الاخلاق يمكن ان تصان بدون دين . ومهما يكن نصيب الجزء الذي يمكننا ان نعترف بموجبه على تأثير التربية العالية على اطباعٍ خاصةٍ ، فإنّ التجربة والعقل البشري ، ليمنعانا من التفكير ان سيطرة الاخلاقية الوطنيّة يمكن تطورها خارجاً عن كل مبدأ ديني » .

ومن الأرجح كثيراً الاعتقاد ، ان الدين ، وخاصة فكرة

الله ، قد لعبا دوراً تكوينيّاً في افكار الرجالات الأوائل للدولة الأميركية .

لقد أبرز الخطاب الافتتاحي لكنيدي المظهر الديني لإعلان الاستقلال ، ومن الأفضل ، ان ننظر الى هذا النص عن كثب ، حين ذكر اسم الله اربع مرات . فالأولى « سنن الطبيعة وإله الطبيعة » التي تمنح ، لكل شعب حقه في نيل استقلاله . والثانية ليست إلاّ التصريح الذي بموجبه أمدّ الخالق كلّ البشر ببعض الحقوق التي لا يجوز التصرف بها مطلقاً . ويحدّد جيفرسون موقع الشرعيّة الأساسيّة للدولة الجديدة في مفهوم « حق أعلى » يرتكز نفسه على أساس مزدوج : الحق الطبيعي التقليدي وديانة « الكتاب » . أمّا التلميح الثالث فهو « لاستشهاد الحاكم الأعلى للكون على استقامة نوايانا » . بينما الرابع والأخير يقرّ ثقة تامة وحازمة بحماية العناية الإلّهية . فالتلميحان الأخيران يعودان الى إله التوراة في التاريخ الذي يملي حكمه على الكون .

إن تكرار ظهور هذه الأفكار الدينيّة في الوثائق الأولى التاريخيّة الرسميّة ، يعطينا فكرة عن الصلات الوثيقة التي كانت تتعهدها هذه الأفكار ، مع الصورة التي كانت ترسمها لنفسها الجمهوريّة الجديدة . إليكم مثلاً ما نجده في أوّل خطاب افتتاحيّ لواشنطن في ٣٠ نيسان ١٧٨٩ :

« قد يكون غير لائق في هذا العمل الرسميّ الأول ان امتنع عن تقديم تضرعاتي الحارة للإله القدير العلي الذي يسود العالم ، يترأس مجالس الأمم ، والذي يستطيع سدّ كل عوز بفضل عونه الإلّهيّ حتى تكرس بركته للحريّات ولسعادة شعب الولايات المتحدة حكومةً اختارها الله بنفسه لهذا الهدف الاساسيّ ، ويجعل كل موظّف في إدارته يقوم على أفضل وجه ممكن بالمهمات الوظيفيّة الملقاة على عاتقه .

« فلا يمكن لأي شعب ان يكون ملزماً اكثر من الشعب الأميركيّ بالاعتراف باليد الخفيّة التي تقود القضايا البشريّة ، وعبادتها . فكل تقدّم تخطوه بلادنا نحو الاستقلال ، يبدو وكأنّه طبع بإشارة من تدخّل العناية الإلّهيّة . . .

« والسماء لا تعطف على أمة غير مكترثة بالقوانين الأبديّة للنظام والحق ، التي فرضها الله بنفسه . وقد نُصيب الرأي إذا اعتبرنا ان الرهان النهائي والأساسي الذي اؤتمن عليه الشعب الأميركي ، هو صيانة حرّيّة ومستقبل النموذج الجمهوري للحكم ». ليس الرئيس وحده من يُعَبِّر عن مشاعر دينيّة كهذه ، فانه بناء على طلب مجلس الكونغرس ، إذ أعلن واشنطن في الثالث من اكتوبر من السنة ذاتها لرئاسته الأولى ، أن السادس والعشرين من تشرين الثاني قد يكون « يوم شكر وصلاة » (وكان ذلك) أول عيد للشكر Thanks giving Day ، منذ إقرار الدستور . هكذا فإن اقوال واعمال الآباء المؤسسين ، وبالأخص الصادرة عن الرؤساء الأول ، قد صاغت للدين المدني الشكل والاسلوب المعروفين عنه منذ ذلك الحين . ومن الواضح انه يتميّز عن المسيحيّة ولو انّه اخذ منها كثيراً من العناصر . أوّلاً لم يذكر المسيح ، لا واشنطن ولا أدامس ولا جيفرسون في خطابهم الافتتاحيّ ، ولا حتّى باقي الرؤساء الذين خلفوهم ، رغم أنهم أتوا كلهم على ذكر الله[٣] . فإله الديانة المدنيّة ليس فقط وحدويّاً ، ولكنّه صارم يولي اهتمامه للنظام والحق والعدالة ، اكثر منه للخلاص والمحبّة . ورغم هذه الرؤيا التأليهيّة لحدٍ ما ، فالله ليس هو خالق الكون فحسب ، بل يهتمّ ويتدخلّ بفعاليةٍ في شؤون التاريخ ، ويظهر اهتماماً خاصاً بأميركا . والحال ان التشابه ينطبق على قانون الطبيعة اقل منه على اسرائيل القديمة . وهنا نجد ان تشبيه أميركا باسرائيل في روح وجود « اسرائيل اميركيّة » ليس نادراً[٤] . فما كان ضمنيّاً في تصريحات واشنطن آنفاً ، يصبح واضحاً في الخطاب الثاني الافتتاحي لجيفرسون الذي اعلن : « سيترتّب عليّ أن أنال نعيم هذا الكائن الذي نحن بين يديه ، الذي هدى آباءنا لإسرائيل القديمة خارج مسقط رأسهم ، ليقودهم الى أرض تكثر فيها الخيرات والمتع » . فأوروبا تمثّل مصر ، واميركا ارض الميعاد : إن الله ارشد شعبها ليخلق شكلاً جديداً من النظام الاجتماعي ، سوف يكون نوراً لسائر الأمم[٥] .

هنا أيضاً موضوع بحث دائم للديانة المدنيّة ، وقد ألمحنا الى ذلك بخصوص الخطاب الافتتاحي لكنيدي ، ونجده أيضاً في خطاب الرئيس جونسون :

« لقد اتوا الى هنا منفيّين وغرباء ، شجعاناً ولكن متهيبين ليجدوا أرضاً يمكن للإنسان فيها ان يكون سيد نفسه . فأقاموا عهداً مع هذه الأرض . ولقد كان مكتوباً لها أنّها ستوقظ يوماً ما آمال الأنسانيّة جمعاء . إذ هي مصمّمة بروح من العدالة ، منشأة بحريّة ومؤيّدة بالوحدة ، وتلزمنا دائمًا بالوفاء لها . فإذا بقينا على إخلاصنا لها سننعم بالازدهار » .

نحن إذاً أمام مجموعة من المعتقدات ، وذلك منذ السنوات الأولى للجمهوريّة ، ومجموعة من الرموز

والطقوس تتعلّق بأحداث مقدّسة ومنظّمة في المجتمع . هذه الديانة ـ التي لا أجد لفظة أخرى للتعبير عنها ـ لم تكن لا طائفيّة ولا مسيحيّة من اي نوع معين ، بالرغم من عدم تناقضها مع المسيحية ، وقد كان لها نقاط مشتركة عديدة معها . ففي عصر كان فيه المجتمع معجوناً في العمق بالمسيحية ، ليس من المعقول ان يكون غياب الاشارة الى المسيح كان يهدف الى مداراة الأقليّة الضئيلة غير المسيحيّة . بل كانت الديانة المدنيّة ، بالاحرى في كل الظروف تعبيراً عن القناعات العميقة لمبتكريها ، والتي كانت تعكس أراءهم العامة والخاصّة . وهي لم تكن « ديانة بسيطة ذات حدودٍ معيّنة » إذ كان البعض يرى بالتأكيد في عموميتها إحْدى صفاتها ـ كما تشهد على ذلك تصريحات فرانكلن المذكورة آنفاً ـ فإن الديانة المدنيّة كانت اكثر وضوحاً لمعالجتها القضيّة الاميركيّة . فنوعيتها هذه بالتحديد هي التي حمتها من الشكليات الخاوية وجعلت منها عاملاً أصيلاً للهوية الذاتيّة الدينيّة للبلاد .

وإذا استثنينا عقيدة قلّة من المتطرفين الرديكاليين كتوم بين (Tom Paine) ، فلم تكن الديانة المدنيّة تعتبر بديلاً عن المسيحيّة في نظر فرانكلن فقط وواشنطن وجيفرسون ، أو غيرهم من رجال الدولة . فكان بالطبع يوجد فصل للمهام واضح كل الوضوح بين الديانة المدنيّة والمسيحيّة . أمّا الحرية الدينيّة المعترف بها في الكنائس ، فكانت تفسح مجالاً واسعاً بشكل استثنائي للتقوى الشخصيّة والمبادرات الاجتماعيّة .

ولكن لم يكن على الكنائس إدارة قضايا الدولة ، كما لم يكن على الدولة التدخّل بقضاياها . وكما سبق ولاحظنا بالنسبة لكنيدي أعلى حاكم في البلاد ، فهو يخضع لمبادىء الديانة المدنيّة طالما يشغل مناصب رسميّة أيّاً كانت معتقداته الدينيّة الخاصة . هذا التدبير نتج بدون أدنى شك من فترة تاريخيّة خاصة ومن بيئة ثقافيّة تسودها مختلف اشكال البروتستانتية والنورانية ، استمرّ حيّاً رغم التقلبات اللاحقة التي طرأت على الحقلين الثقافي والدينيّ .

حرب الانفصال والديانة المدنيّة

حتّى حرب الانفصال (الحرب الأهليّة) فإنّ الديانة العلمانيّة الأميركيّة ، ركّزت قبل كل شيء على الاستقلال (الثورة) ، الذي يُعبر كآخر حلقةٍ من سفر الخروج وذلك يعني اجتياز البحار للهرب من العالم القديم . فإنّ اعلان الاستقلال والدستور ، كانا بمثابة الكتب المقدّسة ، كما كان واشنطن رمزاً للنبي موسى ، المختار من قبل الله ليخلّص شعبه من أيادي الظلم . إن حرب الانفصال حيث يرى سيدني مايد (Sidney Mead) مركز تاريخ أميركا[٦] بأنه يشكّل الحلقة الثانية الحاسمة التي طبعت الهويّة الوطنية الاميركية بعمق ، لدرجة أنها تركت أثرها على الديانة المدنيّة . وكتب الكسيس دي توكفيل سنة ١٨٣٥ ، ان الجمهورية الأميركية لم يسبق لها ان وضعت على المحكّ ، ويعود النصر الذي بتّ في امر حرب الاستقلال بصورة أقل الى العمليات الحربيّة الأميركية منه الى وجود حليف قوي في زمن كان فيه البريطانيون منهمكين في مشاغل أخرى . ولكن سنة ١٨٦١ حان وقت التجارب ، فحرب الانفصال لم تأخذ فقط الحجم المأساوي لمعارك الصراعات الأخويّة ، بل كانت أيضاً إحدى الحروب الاشد سفكاً للدماء في القرن التاسع عشر . فالأميركيون لم يسبق لهم أن اصيبوا قبل ذلك أبداً بخسائر بشرية بهذا الحجم .

اثارت حرب الانفصال الموضوع الرئيسي لمفهوم الأمّة الأميركيّة . ويعود الفضل بعد ذلك للنكولن الذي لم يعبّر عنه فقط بل جسّده في شخصيته الخاصة . لم تكن المسألة بالنسبة له مسألة الرقيق بل أبعد من ذلك ، وهي معرفة ما إذا كان « هذا البلد ، أو أية أمّة صُمّمت على هذا النحو ، يمكنها الاستمرار طويلاً » . وفي ٢٢ شباط سنة ١٨٦١ ، كان قد صرّح في قصر الاستقلال في فيلادلفيا أنّ كل المشاعر السياسيّة التي تنعشني قد استقيتها على قدر استطاعتي من المشاعر المولودة والمعطاة للعالم من هذا القصر . وحتى سياسياً ، لم أعلن أبداً عن رأي الاّ ويكون مستوحىً من المبادىء المقرّرة في إعلان الاستقلال[٧] .

إن صدى خطاب جيفرسون ، حاضر على الدّوام في خطابات لنكلولن ، فكانت رسالته قبل كل شيء لإنقاذ الاتحاد ، ليس فقط لأجل اميركا الوحيدة ، بل باسم ما كانت تمثّله اميركا في نظر العالم كله ، كما يحدّده هو نفسه بشكل لا يُنسى أبداً في آخر جملة من خطاب غوتسبرغ .

ولكن كان يتوجّب حتماً مهاجمة السبب الرئيسي للنزاع ، يعني مسألة الرقيق . ففي خطابه الثاني الافتتاحي ، عالج لنكولن قضيّة الرقيق والحرب ، بقصد اظهار معناهما العميق : « لنفترض ان قضيّة الرقيق الأميركيّة ، تقود هذه الفضائح التي تدخل في أهداف التدبير الإلّهي ، لكنها دامت اكثر مما قُدِّر لها » . فالتدبير الإلّهي يتطلب إنهاء مسألة الرقيق ، لذلك يرسل هذه الحرب

المخيفة الى الشمال والى الجنوب كجزاء عادلٍ للذين أتوا بهذه الفضيحة . فهل كان علينا ان نرى في ذلك شيئاً من الالتواء في الصفات التي أقرّها دائماً المؤمنون لله الحيّ ؟ لنأملْ بقوّة ، ولنتوسّلْ بحرارة ، ان تنتهي بسرعة آفة الحرب هذه . ومع ذلك إذا كانت إرادة الله تقضي بأن تستمرّ هذه الحرب حتى تنفد الثروات المتراكمة في مئتين وخمسين سنة من استغلال عمل العبيد ، وأن تُدفع بالسيف كل قطرة دم أُهرقتْ بالسوط ، فكما كان يقال منذ ثلاثة آلاف سنة ، ينبغي ان نستمر في التأكيد : « أن أحكام الله عادلة ومحقّة تماماً » .

وقد ختم خطابه ملمحاً ، إن لم يكن الى الفداء ، فعلى الأقل الى المصالحة مع الجميع : « من دون اي حقد على إنسان ، بل بالمحبّة تجاه الجميع » .

ومع حرب الانفصال ، ظهر موضوع جديد في الديانة المدنيّة ، هو موضوع الموت والتضحية والولادة الجديدة . وهذا الموضوع يُرمزُ إليه بحياة وموت لنكولن نفسه . فلم يذكر في اي مكان آخر ، بحماس اكثر ، مما هو في خطاب غوتسبرغ ، هذا الفصل من « العهد الجديد » ، المنسوب للنكولن في الكتب المقدسة المدنية .

اشار روبير لويل مجدّداً الى الاستخدام المكرّر لصور معبّرة عن الولادة في هذا الخطاب المخصص بوضوح لتكريم ذكرى الأموات : « مولود ـ مصمّم ـ مخلوق أو تجدد في الحرية » .

ويضيف لويل : « ان خطاب غوتسبرغ انجاز رمزيّ وسري ، تأتي صفته من رنّة كلماته ، كما في ايجازه المنطقي الايجابي النثري . ولقد مات لنكولن رمزّياً بكلماته ، كما قضى قبله حقّاً جنود الوحدة ، وكما كان عليه هو ايضاً ان يموت قريباً ، الميتة نفسها ، وهكذا يكون قد أضفى على ساحة القتال ، القيمة الرمزيّة التي كانت تنقصه . فقد جمع الى الأبد لنا ولبلادنا المثل الأعلى للحريّة والمساواة اللتين نادى بهما جيفرسون للتضحية المسيحية في الموت والولادة الثانية . وعلى ما اعتقده ، فالموضوع هنا يتعلّق برمز يخفى معناه على كل مذهب أو ديانة ، وان هذا الرمز يتعلق من وراء السلام والحرب ، بحياتنا المعاصرة كتحدٍّ وعائقٍ وأمل[٨] .

إنّ لويل مصيب الى حد بعيدٍ بتقييم الصفة المسيحيّة لهذا الرمز ، ولكنه محقّ في ان ينفي فوراً كل بُعد طائفي له . في القديم ، كان رمز الديانة المدنيّة عبرياً ولم يكن يهودياً في شيء . إن رمزيّة غوتسبرغ القائلة : « ان الذين وهبوا حياتهم من أجل أن تحيا هذه الأمّة » هي مسيحية بعيدة عن كل انتماء كنسي . فالمعادلة الرمزية للنكولن والمسيح ، وصُفت باكراً نسبيّاً . وإليكم ما كتبه مثلاً احد اتباع لنكولن ، المحامي هيرندون : « في فترة خمسين سنة أخضع الله ابراهام لنكولن لنارٍ حامية ، وفعل ذلك ليجرّب ابراهام ويطهّره في نواياه . وهذه التجربة جعلت منه رجلاً متواضعاً ، متسامحاً ، صبوراً ، مشفقاً ، محبوباً ، حسّاساً وحليماً . لقد ازدادت شخصيته بكاملها عظمة واتساعاً وعمقاً ، وجعلت منه انبل إنسان ، والأجدر بالحب منذ المسيح . أَعْتَقِدُ ان لنكولن هو مختار الله »[٩] .

ومع النموذج المثالي المسيحي بخلفيته ، انضمّ لنكولن « رئيسنا الشهيد » الى سائر ضحايا الحرب ، الى الذين اعطوا للمرّة الأخيرة « كُلّ حدِّ لتفانيهم » . وهكذا فإن فكرة التضحية ، سُجّلت بأحرفٍ لا تُمحى في الديانة المدنية . سرعان ما وجدت الرمزيّة الجديدة ، تعبيراً مادّياً وشعائرياً . فضخامةُ عدد الضحايا ، تتطلّب فتح عدد من المقابر الوطنيّة ، ومن بينها المقبرة الوطنية لأرلنغتون ، وهي الوحيدة التي تفوّقت على مقبرة غوتسبرغ التي كُرّست بالخطاب الشهير للنكولن . وقد اصبحت تلك المقبرة اول مكان مقدّس في الديانة العلمانيّة ، نظراً لتأصلها مع شيء من روح الانتقام على أراضٍ تابعة لعائلة لي (lee) في بعض أقسامها ، إذ كان يُعتقد انها (اي العائلة المذكورة) سوف لا تجرؤ أبداً على المطالبة بها[١٠] . ونظراً لموقعها بالقرب من مدينة واشنطن على ضفاف البوتوماك (Potomac) ، فلم يُخصّص فرع منها للأموات الفدراليين وحسب بل استقبلت أيضاً جميع الأميركيين الذين قضوا في الحروب اللاحقة . فهي تضم أيضاً رمزاً هاماً من الحرب العالمية الأولى ، هو ضريح الجندي المجهول ، ومنذ وقت قريب ضريح رئيس شهيد آخر وشعلته الأبديّة الرمزيّة .

إن يوم الذكرى « Memorial Day » الذي أقيم على أثر حرب الانفصال ، أعطى تعبيراً شعائريّاً للمواضيع المذكورة . وكما قال لويد ورنر في تحليل بمنتهى الدّقة ، فإن الاحتفال بهذا النهار يشير الى عهد قويّ في حياة المجموعة ، وعلى الأخصّ في المدن والمجمّعات الاميركية الصغيرة ، المجتمعة كلها لتُذكّر بتفانيها للشهداء ، لروح التضحية وللرؤيا الأميركية[١١] . كما أن « يوم الشكران » (Thanks — giving Day) الذي اصبح

نهائياً ، عيداً وطنياً سنويّاً في عهد لنكولن (رئاسته) ، أدّى الى دمج العائلة في الديانة المدنيّة . وقد نتج « عن يوم الذكرى » دمج المجموعات المحلّية في العبادة الوطنيّة . فمع العيد الأقل اتساماً بالطابع الديني ، أي « إعلان الاستقلال » في الرابع من تموز والاحتفال الأقل وقاراً اي « يوم الهدنة » (Veterans Day) وذكرى ميلاد واشنطن ولنكولن ، فإن هذين العيدين يزوّدان الديانة المدنيّة بروزنامة سنوية من الاحتفالات . وتلعب المدرسة الرسمية (الشعبية) دوراً هاماً جداً في إقامة هذه الشعائر ومجرى هذه الحفلات المدنيّة .

الديانة المدنية اليوم

اننا نخاطر بتشويه الواقع تشويهاً خطيراً بتجسيد وتسمية ظاهرة لم تستمر بوعي كامل وإن تكن مهيبة لكنه بوشر بهذا التجسيد وهذه التسمية من قبل .

والواقع ان الديانة المدنية هي التي كان يستهدفها النقد الديني « للديانة ذات الحدود غير الواضحة » او « لديانة طريقة الحياة الاميركيّة » (American Way of Life) او (American Shinto) ، وحسبما هي العادة في الجدل الديني ، فإن النقد ينطلق دائماً من افضل ما في التقاليد الدينية الخاصة ليشهّر بأسوأ مظاهر للديانة المدنية . أؤكد ردّاً على هؤلاء ان الديانة المدنيّة في ارفع اشكالها تمثّل شكلاً أصيلاً من التقرّب من الواقع الديني العالمي والسامي . إن تجربة الشعب الأميركي تبيّن ذلك او يمكن القول انها تكشفه . ولقد تعرّضت كغيرها من سائر الديانات الى تشويه وتحريف شيطاني . وفي أفضل تعبير لها ، لم تكن مبتذلة لدرجة فقدان نفوذها على الحياة الأميركية ، ولا إقليميّة ، لتضع المجتمع الأميركي فوق القيم الانسانية العالمية. لست مقتنعاً ان رؤساء الكنائس قد عبّروا بمنهجيّة عن مستوى من الاحساس الديني ارفع من ذاك الموجود لدى الناطقين باسم الديانة المدنية . إليكم ما قاله رينهولد نيكبير عن لنكولن الذي لم يلتحق بكنيسة ما أبداً ، ويمثّل من دون شكّ افضل ما انتجته الديانة المدنية :

« ان تحليلاً لديانة لنكولن في النزاع المتعلّق بالديانة التقليدية في عهده واستغلالها لأهداف جدليّة حول موضوع الرقيق ، الذي سمّم الحياة الدينية قبل حرب الانفصال ، واثناءها يقودنا الى الخلاصة الآتية :

كانت معتقدات لنكولن الدينية في عمقها ونقائها أسمى ليس فقط من معتقدات رجال السياسة في عهده ، بل والرؤساء الدينيين في ذلك العهد[١٢] .

ومن الممكن ان يكون نقّاد الديانة المدنيّة يحملون على تلك الديانة بحد ذاتها ، اقل مما يغتاظون من تأثيرها المسيطر على أرض الكنائس بالذات » .

لقد برهن س . م . لبست منذ فترة قصيرة عن ذلك : إن الديانة الأميركية بدت على الأقل منذ بداية القرن التاسع عشر منشغلة بالكفاح وبعلم الأخلاق والمشاكل الاجتماعية ، اكثر من انشغالها بالتأملات وعلم اللّاهوت والقضايا الروحيّة الداخليّة[١٣] . وكان توكفيل يرى في الديانة الاميركيّة « مؤسسة سياسيّة تخدم الحفاظ على الجمهوريّة الديمقراطيّة عند الأميركيين[١٤] ، بصيانة التماسك الاخلاقي وسط التغييرات السياسية الدائمة . كما كان هنري بارغي يقدّر سنة ١٩٢٠ شعر النزعة المدنية الوطنيّة[١٥] .

صحيح طبعاً أن الصلات بين الديانة والسياسة ، بقيت هادئة بشكل خاص ، وأهميّة الفضل تعود الى التقليد السائد كما كان يكتب توكفيل :

« إن اكبر قسم من اميركا الانكليزية سكنه رجال انفصلوا عن سيطرة البابا ، ولم يكونوا يخضعون لأية سلطة دينيّة . وقد احضروا معهم الى العالم الجديد ديانة مسيحيّة لا يمكنني وصفها بأحسن من تسميتها ديمقراطيّة وجمهوريّة »[١٦] .

ولم تعترض الكنائس ، لا على الثورة ، ولا على انشاء المؤسسات الديمقراطيّة . حتى عندما عارض بعضها (اي الكنائس) الإكثار من إقامة المؤسسات الخاصة بالحريّة الدينية ، فقد قبلت هي من ناحية ثانية وبطيبة خاطر ، النتيجة النهائية ، متخليّة بذلك عن الحنين الى النظام القديم . فالديانة المدنيّة لم تكن أبداً مقاومة للإكليروس ، ولا علمانية محاربة . وعلى العكس ، فقد استعارت عناصر مختلفة ومنتقاة جيداً من التقاليد الدينيّة ، بحيث لا يعيش المواطن الاميركي العادي أيّ صراع بين التقليدين . وهكذا ، استطاعت الديانة المدنيّة ان تتطوّر دون ان تتنازع بجشع مع الكنائس ، على الرموز القويّة للتعاون الوطني ، وتعبّىء الحوافز الشخصيّة المتعمّقة لخدمة الأهداف القوميّة .

ليس هذا الوضع مسلّماً به على الاطلاق . يبدو أن مسألة الديانة المدنيّة ، مطروحة في سائر المجتمعات العصريّة ، وان لطريقة حلّها او عدم حلها انعكاسات على كثير من

المجالات . يكفي ان نفكّر في فرنسا ، لنرى كيف ان الاشياء يمكن ان تحدث بشكل مختلف . فالثورة الفرنسيّة كانت بعمق ضدّ الاكليروس ، وحاولت إقامة ديانة مدنيّة ضد المسيحيّة . والهوّة القائمة بين الرموز الكاثوليكية التقليدية والنزعة الرمزية لسنة ١٧٨٩ ، بقيت مفتوحة على مدى التاريخ الفرنسي المعاصر .

فالديانة المدنية الاميركيّة لا تزال حيّة . منذ سنوات تقريباً شاركنا في تجديد حيّ لموضوع التضحية بمناسبة إقامة مراسم دفن رئيسنا المغتال . ومن الواضح ان موضوع اسرائيل الاميركيّة يبرز وراء فكرة الحدود الجديدة الغالية على كنيدي ، ومشروع المجتمع الاكبر لجونسون . سأكتفي بإعطاء مثل جديد للدور المعبّىء للديانة المدنية في خدمة الأهداف الوطنيّة . ففي ١٥ آذار ١٩٦٥ حضر الرئيس جونسون امام الكونغرس ليدافع عن مشروع قانوني مهم حول حق التصويت ، وإليكم الكلمات التي بدأ بها خطابه :

« من النادر ان نكون امام تحدّ ، ليس حول نموّنا وغنانا ورفاهيتنا وأمتنا ، بل بالأحرى حول القيم والأهداف والمعنى ذاته لبلادنا المحبوبة .

« والحال ، إن مسألة المساواة في الحقوق بالنسبة الى العبيد ، هي من هذا النوع . فلو هزمنا كل أعدائنا وضاعفنا ثرواتنا ، ووصلنا الى كل الكواكب ؛ فإن لم نقم بواجبنا على مستوى مهمتنا في هذا الحقل ، لكُنّا عندئذٍ أصبنا بهزيمة كشعب وكأمّة .

« هذا صحيح بالنسبة للبلاد كما بالنسبة للفرد : « ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه » .

« إن الله لن يبارك كل أعمالنا بل علينا نحن أن نعرف ما تطلبه إرادته . ولا يمكنني إلاّ أن افكّر أنّه يدرك تماماً العمل الذي نبدأ به ، وأنّ الله يؤيده حقاً »[١٧] .

إن ذكر الديانة المدنية لم يخدم دائماً قضايا محقّة . على الصعيد الداخلي ، هناك ايديولوجيا جديدة كأيديولوجيا « الفيلق الاميركي » (American legeon) ، التي تمزج بين الله ، والبلاد والعَلَم ، أفادت غالباً لمهاجمة الافكار غير الملتزمة والمتحررة وكل انواع التجمعات . فلم يكن من المصادفة ذكر تصريحات جيفرسون ولنكولن، لخدمة مصالح خاصة واقتلاع جذور الفردية . قبل حرب الانفصال ، رفض أنصار الرق ايديولوجيا « إعلان الاستقلال » ومن بين اكثرهم منطقية ، هاجم قسم منهم ، ليس فقط الديمقراطيّة الجيفرسونية بل الديانة البروتستانتية ايضاً لكي يحلموا بجنوب تسوده فروسية القرون الوسطى وحكم ملكي باسم الحق الإلّهي[١٨] . أمّا بالنسبة للتدين المعلن عنه اليوم من قبل اليمين المتطرف فليست له أية صلة مع إجماع الرأي الذي يحيط بالديانة المدنيّة ، كما تشهد على ذلك هجمات جمعيّة دجون بيرش التي شنتها على الرمز الرئيسي للديمقراطية في أميركا .

وبما يخص دور أميركا في العالم ، فإن اخطار الانحراف أكبر ، وحواجز التقاليد أقلّ متانة . فموضوع اسرائيل الأميركيّة ، استُغِلّ منذ البداية لتبرير المصير المخزي المتعلّق بالهنود والمشهورة به بلادُنا . ويمكننا مقارنته مباشرة أو بشكل ضمني بفكرة مصير واضح استُغل لتبرير مختلف المغامرات الامبريالية منذ بداية القرن التاسع عشر ، لم يكن الخطر يوماً اكثر تهديداً من أيامنا هذه . فالمشكلة ليست مسألة التوسع الاستعماري الذي يتهموننا به اليوم ، بقدر ما هي ميلنا لوضع كل الحكومات في وضع مساوٍ مع الأحزاب التي تساند سياستنا الحاليّة أو تدعونا للمساعدة ، وهي تطالب بإقامة مؤسسات حرّة وقيم ديمقراطيّة . فهذه البلدان التي تقف حالياً الى جانبنا ، تشكّل « العالم الحرّ » بينما أصبحت الديكتاتوريّة العسكرية القمعيّة ، وغير المستقرة في جنوب فيتنام هي « الشعب الحرّ لفيتنام الجنوبية وحكومتها » . وعليه ، تقع على عاتق أميركا ، باعتبارها « القدس الجديدة » و « آخر خشبة خلاصٍ للكرة الأرضية » ، مسؤولية الدفاع عن مثل هذه الحكومات بثرواتها وأخيراً بدمائها . فمنذ اليوم الذي مات فيه جنودنا بالمعركة ، أمكن تقديس متابعة الحرب بذكر المسألة المشرّفة للتضحية . إن حُججاً كهذه تبقى مقنعة بالنسبة لأغلبيّة الأميركيين غير المؤهلين لأن يحكموا في ما إذا كان سكان فيتنام الجنوبيّة أو غيرها « احراراً مثلنا » . إن الرئيس جونسون أظهر بإعلانه « إن الله قد بارك عملنا » حماسةً أقل في مسألة فيتنام منه في مسألة احترام الحقوق المدنية . ولكن غيره من الرؤساء ، لم يكونوا مترددين لهذه الدرجة . منذ أمدٍ طويل والديانة المدنية تضغط لايجاد حل انساني ، لأخطر مشكلة داخلية تعترضنا ، هي مصير الأميركيين السود . بقي علينا أن نعلم لأي مدى يمكنها(أي الديانة) ان تنطبق على دورنا في العالم وعمّا إذا كان باستطاعتنا ان نقتدي « بالقناعات الثورية التي من أجلها قاتل آباؤنا » . كما يقول كنيدي .

ان الديانة المدنيّة معنية بداهةً ، بالمسائل السياسيّة

والاخلاقيّة الملحّة في عصرنا . ولكنّها عرضة أيضاً لنوع آخر من الأزمات النظرية واللاهوتيّة قلما تعيه في الوقت الحاضر . فمنذ البداية ، كان الله ولا يزال بوضوح ، رمزاً رئيسيّاً للديانة المدنيّة . ويشغل هذا الرمز مكانةً أساسيةً في الدين المدني ، كما في اليهوديّة أو المسيحيّة . ففي نهاية القرن الثامن عشر ، لم يطرح هذا الموضوع أية مشكلة ، خلافاً لما يفكر به مشنّعو توم باين (Tom Paine) ، فان هذا الأخير لم يكن كافراً . فمن اليسار إلى اليمين ، ولأية كنيسة أم ملة انتموا ، كان الجميع يقبلون بفكرة الله . أما اليوم فإن معنى « الله » أبعد من ان يكون بمثل هذا الوضوح كما اعترفت بذلك مجلة « التايم » . لا تتضمّن الديانة المدنية عقيدة رسميّة . لقد عرفنا رئيساً كاثوليكياً ، فمن المحتمل ان يكون لنا رئيس يهودي . ولكن ، هل يمكن ان يكون لنا رئيس « لا أدري » ؟ هل يمكن ان يُنتخَبَ لرئاسة بلادنا رجل يتردّد في ذكر اسم الله على غرار كنيدي وجونسون؟ إذا كان من الضروري إعادة صيغة الرمزيّة الإلّهيّة من الأساس فلا بد وان يترك ذلك نتائج واضحة على الديانة المدنيّة ، وهي نتائج قد تتأتّى من الارتهان الليبرالي والتصلّب الأصولي ، اللذين لم يكونا قط بمثل هذه الحدّة في هذا المجال .

كانت الديانة المدنيّة نقطة فصل بين الاختيارات الأشد عمقاً لتقاليد الغرب الفلسفية والدينية وبين المعتقدات المشتركة للأميركيين العاديين . ومن غير السابق لأوانه ، ان نتفحّص ، كيف ان التعمّق في الأزمة اللاهوتيّة ، يمكن ان يؤدي الى تعديل مستقبل هذا الفصل .

المرحلة الثالثة للتجربة

حريّ بنا ، في النهاية ، ان نعكف على الديانة المدنيّة ، ضمن منظور الوضع الحرج الذي نجابه فيه اليوم ـ نحن الأميركيين ـ ما أدعوه مرحلة الاختبار الثالثة . فمرحلة الاختبار الأولى كانت مرحلة مسألة الاستقلال : هل كان علينا ، أو بإمكاننا إدارة قضايانا الخاصة على هوانا ؟ ومرحلة الاختبار الثانية ، بدأت مع مسألة الرقّ التي لم تكن بحدّ ذاتها المظهر الأكثر بروزاً من المشكلة الأعم ، المتعلقة باضفاء الصفة المؤسساتية الكاملة على الديمقراطية في بلادنا . وعلى الرغم من أننا أحرزنا بعض التقدّم الملحوظ ، فإننا لا نزال بعيدين عن حلّ هذه المشكلة الثانية . لكن مشكلة ثالثة كبيرة طرأت علينا من جديدٍ ، وأحدثت أزمة ثالثة نحن غارقون الآن فيها . وهذه المشكلة ليست إلّا مشكلة مسؤولياتنا في عالم ثوريّ ، عالم يسعى بجهد للتوصل الى مختلف الأهداف الماديّة والروحيّة التي سبق ان توصّلنا إليها . فمنذ البداية ، وعى الأميركيون مسؤوليّة وقيمة تجربتهم في النظام الجمهوريّ تجاه العالم أجمع ، فكانت الثورة الفرنسيّة فرصة لأول تمزّق سياسيّ داخليّ في البلد الجديد . لكنّنا ، كُنّا صغاراً وضعفاء ، وكانت التعقيدات الخارجيّة تبدو وكأنّها تعرّض بقاءنا ذاته للخطر. فالقيمة الرمزيّة لتجربتنا بالنسبة الى العالم ، لم تختفِ خلال القرن المنصرم ، فكان دورنا يظهر وكأنّه نموذجي محض . وبمجرّد وجودها ، كانت جمهوريتنا الديمقراطيّة تمثّل شجباً حياً للأنظمة الاستبدادية . وكنّا على وشكِ الالتزام بدور مختلف في العالم غداة الحرب العالميّة الأولى ، ولكنّنا تراجعنا في تلك المرّة أيضاً الى الوراء . لم يعد هذا الموقف القديم ممكناً منذ الحرب العالمية الثانية . ومنذ عهد فرانكلين روزفلت ، لم يأتِ رئيس إلّا وتخبّط في البحث عن اسلوب عمل جديد في العالم ، يكون على مستوى مقدرتنا ومسؤولياتنا . ففي عهد ترومان وهيمنة جون فوستردالس ، اختارت اميركا طريقة المواجهة المانوية (اي عقيدة الصراع بين النور والظلام) ، بين الشرق والغرب ، والمجابهة بين الديمقراطية « وفلسفة الشيوعية المنحرفة » التي جعل ترومان منها موضوع خطابه الافتتاحي . لكن هذا النمط بدأ بالتطور في السنوات الأخيرة لرئاسة ايزنهاور ، وفي عهد الرئيسين اللذين خلفاه . لقد بدأنا نفهم ان المشكلات الكبرى لم تكن تتأتّى فقط من عدوانيّة مجموعة ما من الناس ، ولكنّها كانت تنتج من مصادر عديدة واكثر تعقيداً. لم يكن المهم في نظر كنيدي هو محاربة رجال معيّنين ، بقدر ما هو النضال ضد اعضاء البشريّة المشتركين : الطغيان والفقر ، والمرض ، دون ان ننسى الحرب » .

لكننا اليوم قد تورطنا وسط هذا التطور نحو مفهوم أقلّ بدائيّة لهويتنا ولعالمنا ، في نزاع عسكري ، لم يرده أحدٌ حيث نستشعر الآن ان شرفنا في الميزان وفي لحظة تردّد ، اغرتنا قوتنا الساحقة وامكاناتنا المادية للاعتماد عليها اكثر من الاعتماد على ذكائنا . لقد استسلمنا بعض الشيء لهذا الاغراء . وهكذا ، نبدو مضللين ومفكّكين ، عندما لا توفّر لنا امكاناتنا الرهيبة نجاحاً عاجلاً ، فنعود ونجد انفسنا على حافة هاوية لا يعلم أحدٌ عمقها .

لا يسعني إلّا ان اذكر روبنسون جيفرز Robenson)

(Jeffers ، الذي تبدو أبياته الشعرية اليوم صحيحةً اكثر منها في ساعة كتابتها ، حين قال :

« إيه أيّتُها البلادُ الشقيّة أيةُ اجنحة لكِ . . !

إبكي (فهذا شيءٌ مألوف) في البشرية

إبكي روعةَ الامكانات المخيفة

وقِصر العقول المثير للسخرية والنتيجة المحزنة، التافهة والدامية »

لكن ـ مثلما كان غالباً في ظروف مماثلة ـ، إذا برجل يظهر بثوب نبيّ ، ويدعو الى محاكمة هذا البلد ، كما فعل « لنكولن » قبله ، دون أقل ذرة من مرارة جيفرز ، أو فظاظته :

« عندما يكون بلد ما ذا نفوذٍ كبير ، انما تنقصه الثقة بالنفس ، فإنّه قد يتصرف بطريقة خطيرة عليه وعلى الآخرين على السواء .

« إن اميركا تستسلم تدريجياً وبشكل واضح ، لمشرحةِ الأقوياء هذه ، التي آلمت واضعفت ، بل أبادت احياناً الأممَ العظيمة في الزمن الغابر .

« إذا استمرّت الحرب وامتدت ، وإذا تسارع التداخل المحتوم بحيث تتحوّل اميركا الى ما ليست عليه اليوم ، والى ما لم تكنْه مطلقاً ، اي الى بلد يسعى وراء امبراطوريّة ذات نفوذ غير محدود ، فستكون فيتنام قد أحدثت عندئذٍ انعكاساتٍ كبيرة ومأساوية حقاً . لا اعتقد ان ذلك يحدث . انّني اشعر بخوف شديد ، ولكنني احتفظ بأمل ، ولديّ حتى ملء الثقة بأن أميركا بتقاليدها الديمقراطيّة ذات النزعة الانسانيّة ، ستعرف كيف تهتدي إلى الحكمة التي تتطلبها قوتها »[١٩] .

قد تكون الديانة المدنية بالفعل ، تقليداً خطيراً ، لو لم تدرك بلادنا ان المسألة تعود لحكم أسمى من ذلك . ولحسن الحظ ، لم تخلُ يوماً من اصوات نبوية . ان وضعنا الحالي يذكّر بالحرب الأميركيّة ـ المكسيكية التي عارضها لنكولن مع كثيرين غيره . وكان سبق لـ هنري دافيد تورو ان استوعب فكرة العصيان المدني التي تثير اليوم حركة الدفاع عن الحقوق المدنيّة ومعارضة حرب فيتنام ، عندما كتب : « إذا كانت طبيعة القانون بحدّ ذاتها تجبرك على ان تتحول الى عميل للظلم ، فإنّني ادعو حينئذٍ الى الاستهزاء بهذا القانون . سأذكّر مواطنيَّ أنهم بشر قبل كل شيء ، وان حظهم كأميركيين حالفهم في ساعة متأخّرة »[٢٠] . فهذه الكلمات التي قالها تورو تشكّل قاعدة سلوكٍ وتأمل رئيسيّ في هذه المرحلة الثالثة من الاختبار. لقد غُمْرنا بالنعم كأميركيين ، لكنه سيُحكم علينا كبشر في النهاية . كما رأينا الآن ، فإن الرموز الكبيرة للديانة المدنيّة الأميركية انبثقت من مرحلتي الاختبار الاولى والثانية وقلما نشك في ان تؤدي نهاية سعيدة لمرحلة الاختبار الثالثة ـ وهو تحقيق نظام عالمي قابل للحياة ومتماسكٍ ـ الى ظهور أعظم مجموعة جديدة من الاشكال الرمزيّة . حتى الآن ، لا تزال الشعلة الخافتة للامم المتحدة ، بحاجة الى الوهج لتصبح مقرّ عقيدة . ولكن انبثاق سلطة وطنية صحيحة موثوق بها ، قد يعالج الوضع بكل تأكيد . وهذا ما قد يُلزم ديانتنا المدنيّة بأن تحل محل المظاهر الرئيسية للرمزيّة الدولية ، أو على الأصحّ ، من المحتمل ألاّ تكون الديانة الاميركيّة عندئذ غير عنصر من عناصر ديانة مدنية عالميّة جديدة . فمن غير المجدي الاعتماد على الشكل الذي قد تتخذه ديانة مدنيّة كهذه ، ولو كان سيترتب عليها بكل وضوح ان تستلهم التقاليد الاجنبيّة لديانات أهل الكتاب فقط . ولحسن الحظ ، فإنّ الديانة المدنيّة الأميركيّة ليست مكرَّسة لعبادة اميركا ، لكنّها تشكّل مقاربة للتجربة الأميركيّة على ضوء واقع عميق وعالمي . لذلك ليس هناك ما يدعو لأن يتوقف الاصلاح الذي سبّبه هذا الوضع الجديد . فأميركا على استعداد لتقبّل ديانةٍ مدنيّةٍ شاملة ، كمتمم لديانتها المدنية الخاصة لا كنفي لها . الحقيقة ان هذه الخاتمة كانت دوماً الأمل الأخروي (ما يتعلّق بالعالم الآخر والبعث) للديانة الاميركية المدنيّة . ومعارضتها تعني انكار مغزى اميركا بالذات .

وراء كل مظهر من مظاهر الديانة المدنيّة ، يرتسم نموذج مثاليّ من التوراة : الهجرة الجماعيّة ، الشعب المختار ، الميعاد ، القدس الجديدة ، التضحية بالموت والبعث . لكن هذه الديانة اميركية للغاية وجديدة فعلاً . فهي تعدّد انبياء وشهداء لها ، كما ان لديها أماكنها وتواريخها المقدّسة وشعائرها الرسمية ورموزها . وهي تريد ان تكون أميركا مجتمعاً متقيداً على قدر الامكان بمشيئة الله ، وان تكون نوراً هادياً لكل الأمم . لقد قامت هذه الديانة وتقوم الآن مقام غطاء لمصالح صغيرة واهواء قبيحة وككل عقيدة حيّة ، فهي بحاجةٍ لإصلاح دائم ، ولأن تقاس بقياس القيم العالمية . لكنْ ، لا شيء يدلُّ على انها غير قادرة على وثبة جديدة وعلى التجدّد .

إنها تستبق ابداً الحكم على مقرّراتنا ولا تخلّصنا ، لا من المشكلات الوجدانية ولا من وضعنا « كشعب شبه

مختار » ، كما يقول لنكولن متهكّماً ، لكنّها تمدُّنا برصيدٍ من الخبرة الاخلاقيّة والدينيّة ، علينا ان نتعلّم منه الكثير قبل ان نقرّر اختياراتنا المقبلة .

روبير . ن . بيلاّ
(ترجمة د . قصي الحسين)

الهوامش والمراجع

(١) من المفيد التساؤل عن السبب الذي جعل ظاهرة بمثل هذا الوضوح تفلت من كل تحليل جدّي . لا ريب في ان ذلك يعود جزئياً الى طبيعة الموضوع المتنازع فيها . فمنذ السنوات الأولى للقرن التاسع عشر ، انبرت مجموعات سياسية ودينية محافظة لتدّعي ان الديانة الوطنية الاميركية ليست في الواقع غير الديانة المسيحية . دورياً ، وحتى الخمسينات ، ظلت بعض الأصوات ترتفع مطالبةً بتعديل الدستور حتى يتم الاعتراف صراحةً بسيادة الدين المسيحي . في حين ان خصومهم ، بدفاعهم عن مذهب الفصل بين الدين والدولة ، ينكرون كل شكل من أشكال الصلة الداخلية الجوهرية بين الدين والنظام السياسي . حول هذه النقطة ، طلب المعتدلون باستمرار من الدولة ان تكون ليبرالية ومتسامحة حقاً ازاء الجمعيات الدينية (اعفاء من الضرائب الخ . .) ، مشجّعين الدين بالتالي دون ان يضفوا عليه مع ذلك صفة المؤسسة الرسمية التي تهمّني هنا . لكنْ ، ثمة سبب آخر يفسر التعتيم على هذه المسألة : ويتعلق ذلك دون ريب بفرادة المفهوم الغربي « للدين » ، الذي يدل على شكل واحد وفريد للجماعة ، التي لا يمكن للفرد الانتماء لغيرها . ففكرة دورخايم القائلة ان كل جماعة تنطوي على بعد ديني ، والتي تبدو بديهية في جنوب او شرق آسيا ، هي فكرة غريبة بالنسبة الينا . وهذا ما يمنعنا من الاعتراف بمثل هذه الأبعاد لمجتمعنا .

(٢) Dwight D. Eisenhower , in Will Herberg , Protestant — Catholic — Jew , garden City , N.Y. Doubleday Co., 1955 ,97 .

(٣) يُذكر اسم الله او يشار اليه في جميع الخطب الافتتاحية للرؤساء المنتخبين ، ما عدا في الخطاب الثاني لجورج واشنطن ، المقتضب للغاية (فقرتان) والذي يظهر وكأنه شكر شكلي محض . ومن المفيد الاشارة الى ان كلمة « الله » بحد ذاتها لم تظهر الا في الخطاب الافتتاحي الثاني لمونرو ، بتاريخ ١٥ مارس ١٨٢١ . وفي خطابه الافتتاحي الاول ، ذكر واشنطن الله بكلامه عن « ذاك الكائن الكلي القدرة الذي يحكم العالم » وعن « مصدر كل خير عام او خاص » وعن « السلطة الخفية » وعن « الادب العطوف للجنس البشري » . اما جون آدامز فقد أشار الى الله بعبارة « العناية الالهية » او « الكائن الذي يحكم كسّيد مطلق » او « صديق النظام » و « ينبوع العدالة » و « حامي الحرية الفاضلة في كل الأزمنة » . كذلك ، يتكلم جيفرسون عن تلك القوة اللامتناهية التي توجّه مصائر العالم » او عن ذاك « الكائن الذي نحن بين يديه » . وتحدث ماديسون عن « الكائن الكلي القدرة الذي يقرر مصير الأمم » وعن « السماء » بينما أشار مونرو الى « العناية الالهية » و « الكلي القدرة » في اول خطاب رئاسي له .

راجع : Inaugural Addresses of The Presidents of The United States from George Washington 1789 to Harry S . Truman 1949 , 82° Congrés , 2° Session , House Document n° 540 , 1952 .

(٤) مثلاً ، في سنة ١٧٩٩ ، ألقى القس أبيل أبوت ، من كنيسة هافرهيل الأصلية بولاية ماساشوستس ، عظة عن الفضيلة قال فيها : « غالباً ما لفتنا الانتباه الى ان شعب الولايات المتحدة كان أقرب من اية امة اخرى الى أرض اسرائيل القديمة . من هنا الاستعمال المتواتر لعبارة « اسرائيلنا الاميركية » التي يعترف الجميع بعدالتها وشرعيتها . راجع :

Hans Kohn , The Idea of Nationalism , New york , Macmillan 1961 , P . 665 .

(٥) ان المبررات التي قدّمها جيفرسون وفرانكلين لانشاء ختم الولايات المتحدة الاميركية تثبت ان التماثل بموسى كان ماثلاً دوماً في ذهن الرؤساء عند ولادة الجمهورية . لقد كوّن الاثنان مع آدامز لجنة ثلاثية كلّفها المؤتمر القاري ، في الرابع من يوليو ١٧٧٦ ، باعداد الرمز الجديد . « واقترح فرانكلين تصوير موسى رافعاً عصاه بينما ينشق البحر الاحمر تحت قدميه ويطوي في جوفه جيش الفرعون ، إضافة الى الشعار التالي : الثورة على الطغاة طاعة للحرب . اما جيفرسون فقد اقترح صورة ابناء اسرائيل في الصحراء « ترشدهم في النهار سحابة وفي الليل عمود نار » . راجع :

Anson Phelps Stocks , Church and State in The United States , Vol . 1, New york , Harper Co., 1950 , pp 467 — 468 .

(٦) Sidney E . Mead , The Lively Experiment , New york , Harper Row, 1963,. p. 12

(٧) Abraham Lincoln , in Allan Nevins , éed Lincoln and The Gettysbrug Address , Urbana , Illinois , Univ . of Ill . 1964 , p . 39 .

(٨) Robert Lowell , in Nevins . ibid. , On The Gettysburg Address" pp. 88 — 89.

(٩) William Henry Herndon, in Sherwood Eddy, The Kingdon of God and The American Dream, New york, Harper Row, 1941, p. 1962.

(١٠) Karl Decker et Angus MC Sween ù Historic Arlington , Washington , D . C , 1892 , PP . 60 — 67 .

(١١) تسمح دراسة وارنر بتكوين فكرة عن ضخامة التظاهرات التي تحصل بمناسبة « يوم الذكرى » « ان التظاهرات الرمزية ليوم الذكرى التي تعبّىء مجموعة من التنظيمات تتوزع عادةً على أربع مراحل . في غضون السنة ، تنظّم عدة جمعيات احتفالاتها الخاصة لتكريم موتاها وتستعد لليوم الرسمي المقبل . والمرحلة الثانية هي مرحلة التحضيرات التي تبدأ قبل الاحتفال الفعلي بثلاثة او اربعة أسابيع ، بينما تقيم بعض الجمعيات شعائر علنية . في المرحلة الثالثة ، تقام عدة احتفالات في

المقابر والكنائس وقاعات الاجتماعات . تنطوي هذه الاحتفالات على القاء خطب وإقامة شعائر رسمية . إنها تدوم يومين وتنتهي بمهرجان هو المرحلة الرابعة والأخيرة حيث يتجمع كل المحتفلين في قلب المدينة بعد ظهر يوم العيد . تجوب مختلف التنظيمات شوارع المدينة في أرتال تضم المنتسبين اليها بزيّهم الخاص رافعين شعاراتهم ، وتجول على الأضرحة والنصب التذكارية تخليداً لذكرى الموتى الابطال ثم تتوجه في النهاية الى المقبرة حيث تجري عدة احتفالات رمزية ورسمية » . يُذكر اسم لنكولن باستمرار في اثناء هذه الاحتفالات المتعددة وغالباً ما يُتلى خطاب غتسبورغ مراراً عدة . راجع :

W. Lloyd Warner, American Life, Chicago, Univ. Of Chicago Press, 1962, pp. 8 — 9.

(١٢) Reinhold Niebu, The Religion of Abraham Lincoln". In Nevins, éd , op. Cit., p. 72.

إليكم ما كتبه وليام ج . وولف ، عضو مدرسة كامبريدج الاسقفية للدراسات اللاهوتية في ولاية ماساشوستس : « لنكولن هو أحد أعظم علماء اللاهوت الاميركيين ـ ليس بالمعنى التقني من حيث انه أعدّ نظاماً مذهبياً ولا طبعاً بصفته مدافعاً عن ملّة معينة ، انما بمعنى انه استطاع الاعتراف بسلطة الله على جوهر حياة الامم ، وذلك بالضبط كما كان انبياء اسرائيل يحكمون على عصرهم من منظور إله يقظ متنبّه للتاريخ يكشف مقاصده عبر مختلف مراحله . ويعتبر لنكولن اليوم من بين الأنبياء الحديثين » . راجع :

The Religion of Abraham Lincoln, New York. , 1963 , P . 24 .

(١٣ ـ Seymour Martin Mipset, The Religion and American Values in the First New Nation — New York, Basic Books, 1964, chap. IV.

(١٤) Alexis de Tocqueville , De la démocratie en Amérique, T. II, Paris, Pagnerre, 1848 (12° édition) P. 199.

(١٥) Henry Bargy , La Religion dans la societé aux Etats , Unis , Paris , 1902 , P . 31

(١٦) توكفيل ، المرجع المذكور في الهامش رقم ١٤ ، ص ١٩٩ : يضيف الكاتب في مكان لاحق : « ان ديانة الاكثرية العظمى من الناس في الولايات المتحدة هي نفسها جمهورية . إنها تُخضع حقائق العالم الآخر للعقل الفردي ، مثلما تترك السياسة لحسن ادراك الجميع الاهتمام بمصالح هذا العالم ، وهي تقبل بأن يسلك كل امرىء بحرية الطريق الذي يقوده الى السماء مثلما يقرّ القانون لكل مواطن بحق اختيار حكومته » (ص ٣٨٨) .

(١٧) Lundon B. Johnson, in U. S. Congressional Record, Chambre des remrésentants, 15 mars 1965, pp. 4924 — 4926

(١٨) Louis Hartz, The Feudal Dream of The South", 4^2 Partie, The Liberal Tradition in America, New york, Harcourt, Brace Co. 1955.

(١٩) السيناتور ج . وليام فولبرايت ، خطاب ٢٧ ابريل ١٩٦٦ المنشور في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٩ ابريل ١٩٦٦ .

(٢٠) Henry David Thoreau , in Yehoshua Arieli , Indivi dualism and Nationalism in American Ideology , Cambridge , Mass , Harvard University Press , 1964 , P . 274 .